مقدمة الطبعة الثانية

لشرح بخترعلى داروين

(تابع ما قبلهُ)

فالعلوم الطبيعيَّة هي المعوّل الوحيد الذي يزعزع اركان تلك العلوم ويهدم بنيانها بل هي المخل الذي سيتكفل بقلب ما بني عليها من النظامات المتقلقلة والشرائع الحائفة التي هي سبب كل ما نراهُ من الاضطراب في الاجتماع لفقد التوازن فيهِ . فالشرائع التي تدوس الاجتماع حتى اليوم والمبنيَّة على تلك العلوم شرائع استبدادية لاتطبق على نواميس الاجتماع الطبيعي التي لا يصلح الاجتماع الاَّ بها . وسواء كانت الهيَّة او بشرية فالفارق فيها بين اعضاء المجتمع البشري في حقوقهم وواجباتهم عظيمٌ جدًّا . ولا يغرَّنك ما فيها من الاصول المنطبقة في ظاهرها على العقل والعدل فالعبرة انما هي في تطبيقها على العمل والمسك بغير حبل أربانا لا بدَّ من ان يضل في تيه هذا انكون وهذا الحبل ليس الاَّ الطبيعة نفسها ونواميسها . فبالشرائع الثيوقراطية يترفع الرؤساء عامةً عن الشعب ويستأثرون بامتيازات يجعلون بها واجبات هذا الشعب كثيرة جدًّا الى حدّ الاستهانة بالتقشف وحقوقهُ معهم قليلة الى حدّ الاستهانة بنفسهِ . وبالسلطة الروحيَّة التي لهم عليهِ يسطون على عقلهِ وعواطفهِ فيلقون عليهِ من تخاوف اوهامهِ ضاغطًا يجعلهُ يقتنع بانهُ لا يجوز لهُ ان يكون في غير الحالة التي هو فيها . وبالشرائع الأوتوقراطيَّة الاستبداديَّة البشريَّة يرهب الملوك هذا الشعب حتى تموت نفسهُ ويخيم الجهل عليهِ فيسلبونهُ حقوقهُ . ولا فرق بين عالم وجاهل في هذا القتل وموت النفس فكلاهما شرعٌ في التذلُّل هذا يزحف ببطنهِ على الارض حتى يعفر جبينهُ بالتراب وذاك يتنزَّل بتريحهِ فيذلها الى مواطىء الاقدام تزلفًا الى ملك السيف وملوك المال ولو انك تأبى عليهم ان ترمقهم شزرًا لو جرَّدتهم من ذلك كلهِ . فتضحي المصلحة العامة على مذبح الافراد ويموت الفكر لدى مظاهر القوة الغاصبة والمجد الفارغ حتى يصير الملوك آلهةً جبابرة يسلبون ويفتكون ولا وازع لهم من شرائعهم والشعوب عبيدًا ارقاء لا يستهويهم الاَّ رضى ظالميهم وحتى يصير المجد كل المجد لدى اطفال الرجال الالتفاف حولهم لنيل رتبة يلبسون لها ثوبًا مزركشًا يبرزون بهِ في زيّ يضحك حتى ارباب المناصب او للحصول على وسام يعلقونهُ على صدورهم ويبتهجون بهِ كما يبتهج صغار الاطفال بلعبهم فيموت الفخر بالافكار النبيلة والاعمال الجليلة مجرَّدةً عن مضاف هذه الزخارف

ويلحق بهذا النظام عيب آخر يجعل الشرائع اشد ضرراً على المجتمع من ضرر الاستبداد نفسهِ وهو جمودها من طبيعتها تارةً ولامتساك اصحاب السلطة بها اخرى . فلا يسهل تغييرها طبقاً لاحتياجات الاجتماع بحسب الزمان والمكان خلافاً لناموس الاجتماع الطبيعي الذي هو في طبيعتهِ خاضع لناموس التحوُّل العام . ولا لتتغير فيهِ الاَّ بشق الانفس لشدة بواعث الضغط المتجمعة فيهِ على مدى الزمان فتنفجر بهِ انفجاراً هائلاً تبعاً لناموس تجمع القوى الطبيعي الذي تحدث بهِ الكبات الطبيعيَّة في الارض كالزلازل ونحوها . ولذلك كان انتقال الانسان بشرائعهِ ونظاماتهِ في التاريخ مصحوباً دائماً بثورات تجري الدماء فيها انهاراً كثيراً ما ترجع بالاجتماع القهقرى او تقف بهِ عصوراً متطاولة

ولا ينكر ان في اصول هذه الشرائع ما تراعى فيهِ مصلحة الاجتماع بل مصلحة كل فردٍ فيهِ وانما صبغها احياناً كثيرة بما يلبسها حلة الجمود وعدم معرفة تطبيقها على نظام الاجتماع الطبيعي لجهل نواميسهِ بفقدانها مزاياها الحسنة وهذا هو سبب قيام المصلحين من وقت الى آخر على اختلاف نزعاتهم بغض النظر عن مطامعهم الخاصة لمقاومة هذه الشرائع تارةً بالعنف وتارةً باللين وكان السيف فيها دائماً اصدق انباء من سواهُ . ولهذا السبب عينهِ كان مصلح الامس يبدو رزءاً كبيراً على مصلح الغد . والاجتماع هو الذي يتحمل مغبَّة كل ذلك . ولما كان كل هذا الشر لو سير في نظامهِ على منهاج الاجتماع الطبيعي

ولا نريد بهذا القول ان الناس في طبائعهم يكونون بعيدين عن كل شر بل ان مجهولة انتقائهم في شرائعهم وتحوّلهم في نظاماتهم يلطّف من هذا الشر ويزيل كثيراً من اسبابهِ . بل بمعرفتهم نواميس نظام الاجتماع الطبيعيّ يحسنون تطبيق نظاماتهم عليهِ فيقدرون فيها ناموس التكافل القاضي بتقاسم المنفعة على قدر العمل حق قدرهِ ويجتنبون بذلك شر ناموس التكافؤ القاضي بشدَّة التنازع لشدَّة البينة بين هذا التقاسم والعمل ويتَّقون بذلك شرَّ تبذير القوى في الاجتماع عملاً بناموس الاقتصاد الاجتماعي الطبيعيّ . فيعلّمون الانسان حقيقة واجباتهِ من نفس احترام حقوقهِ اذ لا شيء اقدر على تعريف الانسان واجباتهِ للقيام بها مثل معرفتهِ المنافع المترتبة لهُ عليها فباحترام الحقوق تعرف الواجبات فتقلّ الجنايات المترتبة على الجهل بها وبمراعاة كل افراد المجتمع في احوالهم المعاشية تحسن صحتهم فتقلّ امراضهم وتتّقى الاوبئة اذ لقلّ اسباب توليدها وانتشارها . ولا يخفى ما يتبع ذلك من تحسُّن اخلاقهم واستقامة طبائعهم فلا يفشو الكذب بينهم هرباً من عقاب او مراعاةً لمصلحة ولقلّة السرقة المترتبة على الحاجة . وهل يصحّ ان يكون الامر على غير ذلك ؟ افلسنا نحن

الذين علّما الانسان ان يكذب لانّا عاقبناهُ على الصدق وان يسرق لانّا حجبنا عنهُ ما يحتاج اليهِ ؟ او ليس شرائعنا هي التي قنعتنا عن تلك الشجاعة الادبية التي تسموبها اخلاق الانسان وتحملنا كرهًا على احترام هذا الحجب المغتصب بالارهاب ؟ ولا فرق في ذلك بين شرائعنا الاوتوقراطيّة والثيوقراطيّة ففي كل فترة منها ما يرعد الفرائص بالتهديد والوعيد . ولماذا كل هذا الغضب على هذا الانسان الضعيف الذي اقل احتياج من احتياجاتهِ كافٍ لان يدفعهُ الى ارتكاب الجريمة لان الاحتياج مؤلم فالجوع نشّاح والحاجة قاتلة . فلماذا لا ننظر الى ذلك بالنظر الصائب ونكفي الانسان حاجتهُ ونكتفي شرّهُ بل ننتفع كل النفع بهِ ؟

ونحن اذا طلبنا ان يكفي الاجتماع حاجتهُ وندرأ عنهُ علّتهُ وامراضهُ فلا نكون قد تمنّينا حلمًا او قصدنا وهمًا بل نكون قد تحدّينا نظام جسم الحيّ نفسهِ الذي كل عضو منهُ بل كل جزء معًا كان دقيقًا من اجزائهِ يعمل لنفسهِ وللكل معًا والكلّ نفسهُ يعمل لهُ وعلى صحّة هذا الجزء تتوقف صحة الكل والاّ انطرب جسم الحيّ كلهُ وساء مصيرهُ . فدرس نواميس الاجتماع البشري يجب ان يكون بدرس نواميس الجسم الحيّ نفسهِ ووضع نظاماتهِ على قياس نظاماتهِ لان الاجتماع البشري نفسهُ ليس الاّ جسمًا حيًّا ايضًا ولكنهُ حيوان عاقل كما قال عنهُ المقتطف منذ سنين تعقيبًا على بحثٍ لي في تاريخ الاجتماع الطبيعي نشرتهُ في ذلك الحين

ولقائل ان الاجتماع على الصورة التي هو فيها سائرٌ على نظام الطبيعة نفسها وهو متحوّل شيئًا فشيئًا بالتدريج متذبذب مثلها وثوراتهُ مثل نكباتها فالاسراع في ارتقائهِ واجتناب تذبذبهِ وثوراتهِ تخالفٌ للنظام الطبيعي . وهذا القول حقٌّ لولا ان الاجتماع عاقل والطبيعة عمياء فهو قادرٌ ان يتصرف باسرارها ويسخرها الى مصلحتهِ حتى يصحّ القول ان الانسان من يوم اهتدى الى الكساء وشاد البناء لم يتغيّر بدنهُ كثيرًا ولكنهُ في شرائعهِ لم ينظر الى نواميس الطبيعة فتطبيقها عليها واختيار الانفع منها بل صبا عنها الى ما سواها وخالف بذلك نظامها فكأن عقلهُ هنا جنى عليهِ فصرفهُ عن تعرّف اقرب الاشياء اليهِ والصقها بهِ حتى اوغل في الضلال وصار ردّهُ الى الصواب صعبًا جدًّا . او ليس من العار ان ترى الانسان حتى الآن مشغولاً عن حاضرهِ بماضيهِ يبني عليهِ مستقبلهُ منصرفًا بالبحث في ما لا يجدي عن البحث في ما يجدي وما مثلهُ الاّ مثل من يمشي الى الامام وهو ملتفتٌ الى الوراء فلا غروَ اذا وقع في حفرة منجم الاسكندر وهو يمشي ويعدّ نجوم السماء حتى قيل فيهِ المثل " من اشتغل بعلم ما فوقهُ بلي بجهل ما تحتهُ " — فلم يكن بدٌّ لوضع الاجتماع في صراط يصون لهُ توازنهُ ويسرع ارتقاءهُ من صرف قوى الانسان فيهِ عن تلك المباحث الرثّة المضيّقة للعقل المضلّلة لهُ من

فلسفة نظريَّة وتواريخ كنسج العناكب وعلوم عالية ككفة الميزان الفارغة واقاصيص كقماقم عفاريت الف ليلة وليلة وتوجيهها الى البحث المجلد الذي يضمن لهُ ذلك ألا وهو العلوم الطبيعيَّة بما فيها من فلسفة اختبارية مثبتة واسعة التي هي المأوى الوحيد كما تقدَّم لهدم تلك العلوم السخافية وما بُني عليها من النظامات الاجتماعيَّة الفاسدة والاساس المتين الذي يشاد عليهِ بنيان الاجتماع الباسق في المستقبل

واذا علمت ان شأن العلوم الطبيعية لم يأخذ بتعاظم الاَّ في القرن الماضي وان النواميس الكبرى التي تسوس الطبيعة لم تجلِ حقيقتها الاَّ في النصف الثاني منهُ ونظرت الى النتائج العظمى التي ترتبت على ذلك في هذا الزمن القصير من ارتفاع شأن المنافع العموميَّة وتقدم الصناعة والزراعة والتجارة ولنشر التعليم ومعرفة حقوق الانسان ولتقرير سيادة الامم وخصوصاً اتجاه قوى العقل الى النظر في القريب الدانيء وتولُّد حب البحث فيهِ عن الحقائق الملموسة لم يبدُ لك شيءٌ من الغلو في ما تقدم من القول . فان تحوُّل مجرى افكار الانسان في جميع مباحثهِ الى هذه الجهة سيكشف لهُ اسراراً كثيرة في الطبيعة ليس المعلوم منها لهُ اليوم الاَّ نزراً يسيراً بالنسبة اليها تزيدهُ علماً وقوةً وتضطرهُ بحكم الضرورة الى قلب سائر ما بناهُ على غير هذا الاساس بسرعة لا يعادلها الاَّ تباطؤهُ في ما مضى عن الاندفاع في هذا السبيل القويم . — واذا علمت ان مرقوتو ليس بتعرُّفهِ خصائص المادة وخواص القوى الهادية فيها كالحرارة والكربائيَّة والنور والجاذبيَّة على اطلاقها والالفة الكيماويَّة حتى القوى الحيوية بل بمرقة تحوُّل هذه القوى بعضها الى بعض وربطها بناموس عام يشملها جميعها أعظمت شأن مذهب النشوء والتحوُّل الذي هو موضوع هذا الكتاب والذي هو من منتجات القرن الماضي وحدهُ بل نصفهِ الاخير . بل لو علمت كم كلَّف من العناء تقرير هذا المبدإ الذي يبدو اليوم للعلم بسيطاً وكم اثار من الحروب العقليَّة واللسانية بين علماء النظر والاختبار بل بين علماء الطبيعة انفسهم قبل ان يقرَّهُ العلم بما يزيدك دلالةً على ما للاعتقادات الموروثة من الشأن في الضغط على العقول حتى الراقية لاعظمت جدَّة الفكرة الاستنتاجيَّة التي حملت داروين على التصريح بهِ بل صبرهُ واجتهادهُ في جمع الادلة لتأييدهِ ولأعظمت جسارة اتباعهِ واطلاقهم اياهُ على العالم باسرهِ وتطبيق اعمال الفكر نفسهِ عليهِ

والحق ان فضل داروين العظيم ليس في فكرة وضع اساس هذا المذهب بل بتأييدهِ لهُ بالادلة العلمية الطبيعية . وجعلهِ صالحاً لا لان يطبق على الاحياء وحدها فقط بل لان يشمل الطبيعة كلها لا في الارض وحواليدها الجماد والنبات والحيوان فقط بل في السماء

واجرامها ايضاً . فقد سبق دارون فلاسفة وعلماء طبيعيون قالوا بهذا المذهب قبلهُ او بما يدل عليهِ واخصهم بالذكر عالمان طبيعيان كبيران وهما لامرك وجفروى سنتيليار في اوائل القرن الماضي ولكن ايجابهما ليهِ كانت قاصرة لقلة الادلة العلمية فلم تستطع ان ترجه الافكار اليها وان تحدث الثورة التي احدثتها ابحاث دارون فقامت العلماء واقعدتهم واثارت بينهم حرباً شعواء كانت هي السبب في جلاء هذا المذهب وانتصارهِ

والغريب ان دارون ايَّد مذهبهُ بشواهد وادلة اخذها من ابحاث علماء اعلام قبلهُ وبعضهم كان من معاصريهِ ومع ذلك فقد لاقى من هؤلاء المعاصرين انفسهم مقاومات عنيفة وما مثلهم كما قال هيكل الاَّ مثل رجل دخل غابة كثيفة فاخذ ينظر في كل شجرة من اشجارهِ ولكنهُ لم يمتدَّ ببصرهِ الى الغاب كلهِ المؤلف من مجموعها كما ان الفلاسفة الذين قالوا بمذاهبهم في الكون نظروا الى الغاب جملةً ولكنهم لم يدخلوا فيهِ لتعرُّف كل شجرة من اشجارهِ على حدة فانت مذاهبهم مغلوطة او غير ناضجة بخلاف دارون فانهُ تعرَّف كل شجرة من اشجارهِ ثم رجع ونظر فيهِ جملة . وهذا شأن اكثر الناس في مباحثهم فمنهم من يقف عند تعرُّف الجزئيات ولا تجد عندهُ اقل ميل للنظر في الكليَّات ومنهم من يمتدُّ بنظرهِ حالاً الى الكليات وما مثل الاولين الاَّ مثل العامل الذي يقطع الحجارة ويختبها والآخرين مثل البنَّاء الذي يبنيها . فان ابحاث علماء الاجسام الحيَّة في تركيبها والفوارق التي بينها والاعضاء الاثريَّة التي فيها واختلافهم في عدد الانواع واختلاطها في آفاقها كل ذلك كان قد زعزع مذهب الخلق النوعي المستقل . وكانت ابحاث لَيل في طبقات الارض قبل ذلك قد اثبتت حصول التغيُّر التدريجي فيها ونفت القول بمذهب النكبات الجيولوجية الكلية الفجائية واجهزت على القول بمذهب الخلق الكلي ثم جاءت الاحافير التي اكتشفت في هذه الطبقات مؤيدة للتحوُّل البطيء في الاحياء نفسها . فلما جاء دارون لم يكن عليهِ الاَّ النظر في ذلك جملةً لتأييد مذهب التحوُّل ونسبتهِ الى اسباب مختلفة طبيعيَّة حدت بهِ الى وضع مذهبهِ الشهير وهو الانتخاب الطبيعي تبعاً لناموس المطابقة القائم على تنازع البقاء وبقاء الانسب . وعزَّز قولهُ بانهُ تحدِّي الطبيعة وايَّد عملها بالانتخاب الصناعيّ

واغرب مما تقدَّم ان دارون نفسهُ مع انهُ واضع اساس مذهب النشوء والتحوُّل الطبيعي لم يستنتج من مذهبهِ كل ما يترتَّب عليهِ من النتائج الصريحة اما لانهُ لم يستطع او لم يجسر لشدَّة تأثرهِ بالمذاهب الشائعة واما لانهُ لم يرد ليردَّ عنهُ مقاومة اصحاب الخلق النوعي لصعوبة اقامة الدليل العلمي على التولد الذاتي . فقال ان الاحياء نشأت في اول الامر من

خمسة او ستة اصول تامة الخلق ومنها تفرّعت سائر الاحياء المعروفة اليوم والبائدة بفعل نواميس الطبيعة نفسها. ولكن التحفظ لم يدنه شيئاً فقد لاقى مذهبهُ مع ذلك مقاومات شديدة جدًّا من اصحاب مذهب الخلق النوعي وخصوصاً من اذنابهم اصحاب المبدإ الحيوي . على ان الذي لم يتصل اليهِ دارون او لم يشأ ان يصرّح بهِ فعلهُ معتنقو مذهبهِ بعدهُ على اثر انتشارهِ حالاً واطلقوهُ على سائر الطبيعة . واكبر زعمائهم هكسلي وسبنسر في انكلترا وهكل وبختر في المانيا

وسواء هبطت اصول الاحياء من السماوات العلى كما يفهم من قول دارون او وصلت الينا من بعض الاجرام محمولةً على بعض النيازك كما ذهب السير وليم طمسن المعروف باللورد كلفن ايضاً صاحب المباحث الكبرى في فلسفة الكون وواضع مذهب الحلقات الزوبعية في الميولى لتعليل الجواهر الفردة فان ذلك لا يؤيد مذهب الخلق الفجائي الذي هو كالتولد الذاتي ليس لنا عليهِ ادنى دليل علميّ او شاهد عيانيّ ولا ينفي كون التولد الذاتي حاصلاً في الاجرام التي هبطت الجراثيم منها او ممكناً في الارض التي نمت وتحولت فيها وانما يثبت شدة تأثر العقول بالمذاهب الشائعة ولو انها بقايا اساطير تخالف العلم . وخصوصاً انقيادها لمذهب القائل بان القوى الحيويّة لا علاقة لها بالقوى الطبيعية وكل علاقتها بها انما هي عارضة . وهو بقيّة رثّة من مذهب تعدُّد القوى في الطبيعة لا تنطبق على فلسفة ناموس الاشوء والتحوُّل الذي صار اليوم في حكم المقرَّر لدى جمهور العلماء والذي لا يشرف الاَّ برحدة هذه القوى لثبوت تحوُّلها بعضها الى بعض . وكأن زعماءهُ انخفض صوتهم جدًّا اليوم

وواضع اساس هذه الوحدة في نواميس الطبيعة هو بالحقيقة اسحق نيوتون الفيلسوف الرياضي الانكليزي الشهير وذلك في القرن السابع عشر . فانهُ لسبب طفيف يعرض لكلٍّ منا في كل دقيقة ولا يقف في الخاطر وهو سقوط تفاحة من الشجرة الى الارض اكتشف نواميس الجاذبية العامة وأقرَّها على اساس علميّ واطلقها على كل الكون وقد اشار فلاسفة اليونان الى هذه الجاذبية في نظرهم الى الكواكب واعتبارها عامّة دورانها بعضها حول بعض . وقد نقل العرب عنهم ذلك وعبَّروا عنهُ بلفظة الشوق ولم يزيدوا على ذلك . وقد استعملت عنهم هذه اللفظة للتعبير عن الجاذبيّة في قولي

لولا الهوى وبديع الشوق يهديهِ ما صحَّ في الكون معنى من معانيهِ
ولاسرى النجم في العلياء وانتظمت لهُ المواقع لتعديلٍ وتدنيهِ

فمرجع الفضل في اكتشاف نواميس الجاذبية وتطبيقها على العلوم الرياضية انما هو لنيوتن

وحده كما ان الفضل في تقرير مذهب النشوء والتحوّل على مبادىء عملية اختبارية ثابتة هو لداروين وحده . على ان نيوتن وقف في مذهبه عند هذا الحدّ ولم يشر الى العلاقة بين جاذبيته وسائر قوى الطبيعة ليردّ هذه اليها او يجعل تلك منها حتى انتشر مذهب النشوء والتحوّل فاتمّ الرابط وصارت هذه النتيجة لازمة لدى معتنقي هذا المذهب كما في هذا القول

شوق تكامل من ادنى الوجود الى ... اعلى فأعلى الى أعلى أعاليه
حتى تناهى وقلب المرء تلهبهُ ... نارٌ من الحبّ يذكيها وتذكيه

ولاسيما انهُ كان قد تقرّر قبلهُ تحوّل قوى الطبيعة بعضها الى بعض كالحرارة والنور والكهربائية واعتبارها جميعها من اصل واحد

الدكتور شميل

الاجتماع

والخلل في الغريزة العائلية والنقص في القانون

بيّنت في المقالة التي صدرت في مقتطف الشهر الماضي الخلل التي يرافق وظيفة حفظ النوع واقتصرت في البيان على ما يسمح المقتطف بنشره وضربت صفحاً عمّا شاهدت من الحوادث الغريبة التي تؤيد ذلك ولا تبقي مجالاً للريب . وسأبيّن في هذه المقالة الخلل في الغريزة العائلية وقد تسرت الكلام عليها هنا دون بقيّة الغرائز لانها فرع من وظيفة حفظ النوع والصفة التي يتوقف عليها حب العائلة وينشأ منها النظام الاجتماعي . وسترى فيما يأتي ان الغرائز في الحيوان والانسان لا يصح الاعتماد عليها في الاعمال الحيوية ولا في الاوضاع الادبية لان في عملها خللاً تابعاً لخلل الاصل الذي نشأت منهُ . ولا غروَ اذا وجد الخلل في غريزة الانسان العائلية لانها احدث عهداً في تاريخ النشوء من الغريزة الجنسية ولانها في الحيوان اضعف منها في الانسان واقل وضوحاً من بقية الغرائز

ومما يدعو الى تدقيق البحث في هذا الموضوع ما نراهُ دائماً من زعم بعض الكتّاب والمفكرين لاثبات بعض النظريات في فلسفة الاجتماع العائلي والجنسي ان الاجتماع بلغ في سلّم الارتقاء الغاية التي لا غاية بعدها والانسانية بلغت حدّاً من الكمال لا يقبل المزيد لان العقل البشري ضمنَ السعادة للانسان بما اكتشف من اسرار الطبيعة وبما سنّ من الشرائع والقوانين والنظامات . على ان حكمهم هذا لا تؤيدهُ البراهين الوضعية ولا تنطبق موادّهُ على